

جبل الهيكل المتخيل*

يوسف سعيد النتشه**

جولة نقدية في مركز دافيدسون

(المتحف الذي أقيم على أنقاض أحد القصور الأموية في جوار المسجد الأقصى)

”نريد وضع حجر الأساس... في عقول الناس أولاً.“

حاخام جماعة ما يسمى ”أمناء جبل الهيكل“

يعرف هذا المتحف باسم مركز إيتان وميريام دافيدسون (Ethan and Miriam Davidson Centre)، واختصاراً باسم مركز دافيدسون (Davidson Centre)، نسبة إلى اسم المتبرع الذي قدم منحة سخية لإنشائه على اسم ولديه. وقد افتتح هذا المتحف حديثاً في أواسط سنة ٢٠٠١، بعد مرحلة بناء وتجهيز استمرت عامين.

يقع هذا المتحف (المركز) داخل البلدة القديمة من القدس، مجاوراً سورها الجنوبي، على بعد بضعة أمتار فقط إلى الشرق من باب المغاربة. وهو بهذا الموقع يكون داخل الأرض الوقفية التي وضعت السلطات الإسرائيلية يدها عليها بالقوة، وحولتها لاحقاً إلى ما يسمى اليوم الحديقة الأثرية (Archaeological Park) التي تقع إلى الجنوب الغربي من المسجد الأقصى. وعليه فإن هذا المركز يقابل زاوية المسجد الأقصى الجنوبية الغربية، حيث قوس روبنسون، المعول عليه كثيراً في سيناريو وأحداث الأفلام والرسومات الإلكترونية التي تعرض في المركز. وتمتد الحديقة الأثرية على طول جدار المسجد الأقصى الجنوبي. والحديقة تقسم قسمين بواسطة سور القدس الذي يبرز عند الباب المزدوج في اتجاه الجنوب، ثم ينكسر غرباً ليواصل امتداده الغربي بالقرب من جبل صهيون. ويقع الجزء الغربي من الحديقة ضمن البلدة القديمة، ويمتد عدة أمتار في اتجاه الشمال موازياً زاوية المسجد الأقصى الجنوبية الغربية، بينما يقع القسم الشرقي خارج أسوار البلدة القديمة بين جزء من سور القدس، الذي يشكل في الوقت نفسه سور المسجد الأقصى، وبين الطريق العام الذي يحيط بالبلدة القديمة من جهتي الشرق والجنوب، ويوصل إلى سلوان.

وهذا الموقع تعرض لحفريات أثرية كثيرة، بعضها قامت به عالمة الآثار

(*) المصدر: The Digital Temple Mount, *Jerusalem Quarterly File*, no. 19 (October 2003), pp. 53-58.

(**) باحث في العمارة الإسلامية، ومحاضر في المعهد العالي للآثار الإسلامية في جامعة القدس.

البريطانية كاثلين كينيون (C. Kenyon)، في الستينات من القرن الماضي. إلا أن أعمق وأوسع وأشمل هذه الحفريات قام به الإسرائيليون بعد حرب ١٩٦٧ مباشرة، لا لدوافع علمية محضة وإنما لأسباب سياسية. وعلاوة على ما تقدم فإن هذه المنطقة، وقبل إجراء الحفريات فيها، جذبت انتباه كثير من الرحالة والمكتشفين في القرن التاسع عشر، لما ظهر فيها من بقايا معمارية وأثرية، وأدى التعرف على بعضها إلى تسمية هذه البقايا الأثرية بأسماء بعض هؤلاء الرحالة مثل: روبنسون (Robinson)؛ وارن (Warren)؛ ولسون (Wilson).

وكشفت هذه الحفريات عن بقايا من طبقات أثرية ومخلفات معمارية تعود إلى فترات زمنية متعددة تعاقبت على الموقع ومدينة القدس، وأشهرها بقايا من الفترتين الرومانية والبيزنطية. والفترتان اليونانية والرومانية يسقط عليهما الإسرائيليون في منشوراتهم الأثرية فترة الهيكل (المعبد) الثاني، ويظهرونها كفترة مستقلة. لكن من أبرز ما كشفت عنه الحفريات كان مجمع دار الإمارة الأموي، الذي تألف من بضعة قصور ومرافقها المتعددة. وقد أقيم هذا المتحف ضمن أجزاء أسس أحد هذه القصور. وهذا ما تشير إليه اللوحات الإرشادية داخل المتحف، لكن في مرحلة متأخرة وبعد أن يصل الزائر إلى القاعة الثانية في المتحف.

هدف هذا المتحف الظاهري هو تسليط الأضواء والتركيز على تطور منطقة المسجد الأقصى (Temple Mount) في الفترة الرومانية (الهيكل الثاني) والبيزنطية والأموية. وإن كان جل المعروضات خصص للفترة الأولى، لكن يبدو أن للمتحف هدفاً خفياً قُصد منه توصيل التخيّل الذي يصعب تصوره في أذهان الزائرين إلى ما يدعى الهيكل الثاني، وخصوصاً بعد زيارة المسجد الأقصى. لذا فقد جاء هذا المتحف ليساعد ويسهل تخيّل الهيكل بعد أو قبل زيارة ما يعرف بالحديقة الأثرية، التي تم تشويه وتهميش ما وجد فيها من آثار عربية إسلامية.^(١) ويستخدم المتحف أسلوباً عصرياً سُخر له كل التقدم التكنولوجي الممكن والمتاح بواسطة رتل من الشركات والمستشارين المختصين للمزج بين البقايا المعمارية الأموية ومواد البناء التقليدية والحديثة، مثل الزجاج والخشب والفولان المصقول. فالإضافات جميعاً لا تستند إلى بقايا القصر الأموي، وإنما هي مستقلة.

وحيث أن الموقع أثري وداخل حديقة أثرية، فأغلب أجزائه يقع تحت مستوى الأرض الحالي (الحفر وصل إلى عمق ١٣ متراً). وهو مكون من ثلاثة مستويات تمزج بين الحديث والقديم بأسلوب ناجح يعتمد الإضاءة العصرية واللوحات الزجاجية للافتات الإرشادية، التي تركز على تاريخ وعمارة المنطقة في العصرين الروماني

(١) من ذلك التشويه إنشاء مظلة كبيرة لا تتوافق مع الموقع في أحد أفنية القصور الأموية، وقد استخدم في إنشائها مواد حديثة بدلاً من المواد التقليدية.

والأموي، علاوة على مجموعة كبيرة من الخرائط والمجسمات ثلاثية الأبعاد لمدينة القدس.

وأول ما يستقبل الزائر من لوحات عبارة عن مجموعة من الصور التي رسمت للهيكل كما تخيله كثيرون من الرسامين والمعماريين، والتي تعود إلى فترات متعددة، وبأساليب وطرز معمارية متنوعة تعكس ثقافة الرسامين. وأولى هذه الصور ما ورد على قطعة نقد، تنسب إلى باركوخبا، وتؤرخ لنحو ٦٠ عاماً بعد خراب وهدم الهيكل على يد تيطس، وآخرها ما يعود إلى عصر النهضة. ويوجد في خزائن العرض مجموعة من المسكوكات تعود إلى الفترة الرومانية، وقطع فخارية، وتواريخ للفتريات التي مرت بها القدس (المسطرة التاريخية/الحقب المتعاقبة).

وهناك تركيز واضح على الفترة التي يطلق عليها فترة الهيكل الثاني. لكن قياساً بأماكن أخرى فإن الإشارة إلى الفترة الإسلامية الأموية تعتبر أفضل من ذي قبل، وإن كان هذا لا يتوازي مع الفترات الأخرى، لكن لا يجد الزائر التجاهل التام والمعهود للفترات العربية الإسلامية، وأسلوب الانتقائية والتوسع لفتريات تاريخية محددة (يمكن المقارنة مع متحف القلعة، "متحف داود").

ويعرض هذا المتحف أحدث ما يمكن اعتماده من وسائل سمعية وبصرية وتكنولوجيا سخرت لخدمة أهداف هذا المركز. فمن ذلك فيلم قصير لمدة أربع دقائق عن تاريخ الحفريات الأثرية حول منطقة المسجد الأقصى من سنة ١٨٤٠ حتى سنة ١٩٩٦. وهذا الفيلم يعرض تعاقباً باللغتين العبرية والإنكليزية. وهناك فيلم آخر أطول من الأول، يعرض زيارة متخيلة للهيكل في الفترة الرومانية منذ يوم كانت فكرة إلى أن أصبحت واقعاً. ويمزج الفيلم بين المتخيل (إعادة البناء) والمكتشف الباقي من الآثار. والفيلم على أسلوب هوليوود مصاغ بتصريف كبير وبعاطفة جياشة، وكأن سكان فلسطين والقدس في العصر الروماني كانوا كلهم يهوداً يقصدون الهيكل، ولا مجال لديانة مغايرة وثقافة أخرى.

يتوفر في المركز برنامج في كومبيوتر تفوق قوته ٣٠,٠٠٠ مرة قوة الكومبيوتر الشخصي العادي، وهو عبارة عن محاكاة (simulation) للقدس في الفترة الرومانية، مع تركيز على منطقة الهيكل. ويستخدم هذا البرنامج الوسائل التكنولوجية الرقمية المتقدمة نفسها التي يستخدمها سلاح الجو الأميركي لمحاكاة الطيران، وأشرفت عليه ليزا سنايدر (Lisa Snyder) من قسم العمارة والتخطيط الحضري في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجليس، ويشغله أمناء المتحف فقط، ويستغرق التدريب عليه نحو ثلاثة أسابيع للمهتم والمختص. ولإعطاء فكرة عن هذا البرنامج يكفي أن نشير إلى أنه يتعرض لأدق تفاصيل المدينة الرومانية، ويمكن مشاهدة المدينة كاملة بثلاثة أبعاد، ومن ثم التفرع والوصول إلى زخرفة هندسية أو نباتية (كورقة أو عنقود عنب)

تغشى أحد التيجان أو الإطارات. ولإنتاج هذا البرنامج تم تطعيم الكمبيوتر بصور ومجسمات لطوبوغرافيا المدينة، مع صور جوية وبقايا أثرية، وهو يعرض المحاكاة كما أعيد تخيلها. وإلى جانب ذلك يمكن عرض صور فوتوغرافية للعنصر المعماري أو الزخرفي نفسه الذي وجد في الحفريات.

ووضع في تصرف الزوار، في حال عدم كفاية الوسائل والمعروضات السابقة لإقناع الزائر (بحقيقة؟!) الهيكل الثاني - على الرغم مما يعوز ذلك من دلائل مادية - وتاريخه وتطوره، جهاز كمبيوتر حديث، ومجاني الاستخدام، يعرض معلومات متاحة أيضاً في شبكة الإنترنت (www.archpark.org.il) تتعلق بعدة موضوعات، مثل الحديقة الأثرية، ومركز دافيدسون، وخرائط أثرية، ومسارات وجولات في المنطقة وما يجاورها، ومعلومات وافية موجزة عن علماء آثار كان لهم جهود في المنطقة، ومراجع تاريخية ومصادر، ومسطرة تاريخية، وقائمة بالمصطلحات المستخدمة، ومعلومات عامة عن الزيارة والموقع. وكل موضوع من هذه الموضوعات يتفرع إلى عدة أقسام وفق ما هو متعارف عليه في برمجة الكمبيوتر، وبحسب المعطيات التي تنوي المؤسسة صاحبة الموقع طرحها. وكل هذا معروض بطريقة بسيطة ومريحة وعلمية، وفي أجواء هادئة تقنع الزائر بحقيقة المعروض بعد التشديد على أن هذه المعطيات اعتمدت على الحفريات الأثرية والمعلومات التاريخية.

إلى هنا يبدو الأمر عادياً، لكن يمكن الإشارة إلى بعض الملاحظات النقدية فيما يتعلق بالمتحف ومحتوياته، مثل:

- (١) خلو لافتاته الإرشادية من اللغة العربية، واقتصارها على اللغتين الإنكليزية والعبرية، مع أن في الحديقة الأثرية لافتات إرشادية باللغة العربية.
- (٢) إن الإشارة إلى أصل الموقع أنه قصر أموي تأتي متأخرة ومقتضبة، ولا تلفت نظر أي زائر.
- (٣) كي يكون هناك توازن بين الفترات التي يهتم بها هذا المتحف، لا بد من استكمال مشاريع الفترة الأموية، وخصوصاً فيما يتعلق بالأفلام التوضيحية وبرامج الكمبيوتر.
- (٤) إن الأسلوب الأخاذ والبديع، الحديث في طريقة العرض، يجب ألا ينسى الزائر أن هذا المتحف (المركز) أقيم على أرض محتلة، وأن القسم الشرقي من الحديقة الأثرية أقيم على أرض وقفية ما زال وضعها القانوني معلقاً، ولم توافق دائرة الأوقاف الإسلامية على هذه الحفريات على الرغم من أنها صاحبة الملك، بل إن الاعتراضات والتحفظات التي أرسلت إلى اليونسكو والأجهزة الإسرائيلية، وعلى كثرتها، لم تقع إلا على آذان صماء.

(٥) ثم لماذا هذا المتحف في هذا الموقع الإسلامي بالذات وهناك مجسم مشهور في القدس الغربية في فندق الأرض المقدسة (Holy Land Hotel)، يزار من جانب السياح والمهتمين، ويعطي فكرة جيدة عن القدس الرومانية، ولا يزال موضع تطوير وتحديث كلما جد جديد.

(٦) وفي موضوع إعادة البناء والتخيل للمواقع الأثرية، هناك لوائح وإجراءات دولية متعارف عليها في المحافل والمؤسسات المتخصصة، مثل لائحة فينيسيا، تمنع إعادة البناء والمحاكاة ما لم تتوفر قاعدة معلومات وبيانات دقيقة موثقة. وإذا كان المشرف على هذا المركز، روني رايش (Ronny Reich)، يعترف بأن مهمة تحديد المعلومات واختيارها كانت تسبب جرحاً وألماً للباحث، كونه يختار تفصيلات المحاكاة من عدة آلاف من النسخ،^(٢) فهل هذا العمل - إذا كان كذلك - يمكن أن يوصف من جانب يعقوب فيش (Jacob Fish)، مدير الشؤون الخارجية والمعارض المتنقلة في سلطة الآثار الإسرائيلية، "بأنه [أي فيلم المحاكاة] ليس كفيلم المجالد (Gladiator)،^(٣) وإنما يعتمد على الأدلة الأثرية"^(٤) وهل يبرر العثور على زخرفة لتاج عمود تزيين كل التيجان بها؟

ليت الأمر يقتصر على هذه الملاحظات النقدية الفنية لهذا المتحف، ويتوقف عندها،^(٥) لكن الأمر خطر جداً، وخصوصاً إذا ما ربط المرء بين ما يجري على الساحة الفلسطينية من أحداث تتعلق بالمسجد الأقصى، "الحرم الشريف"، والقدس وبين أهداف هذا المتحف. وليس عسيراً أن يربط بين ما يجري من تطورات سياسية وقضائية تتعلق بمنطقة المسجد وبين ما يتم من توجهات ثقافية ودعائية، ليجد المرء أن الأمر مترابط جداً ولا يمكن الفصل بين الاتجاهين السياسي والمعرفي، اللذين يمهدان لتهديد المنطقة بتغييرات أشمل وأوسع.

والمقصود بهذه الأحداث والمجريات تصرفات ومشاريع الجماعات الأصولية اليهودية المتطرفة، مثل جماعة "كاخ"، و"غوش إيمونيم"، و"عطيرت كوهنيم"، وما يسمى "أمناء جبل الهيكل" بزعامة المتطرف غرشون سلمون، الذي ما فتئ يهدد المسجد

(٢) "It's a traumatic job for a scholar to decide between several thousands possible versions" نقلاً عن:

Judith Sudilovsky, "Virtual Temple Mount, Computerized Exhibit Opens at the Foot of Ancient Site," in *Biblical Archaeological Review*, vol. 27, no. 4 (2001), p. 16.

(٣) أحد أفلام هوليوود لسنة ٢٠٠١، وقد حصد عدة جوائز أوسكار، وهو يعرض قصة خيالية في العصر الروماني.

(٤) "This is not the movie *Gladiator*. It is all based on archaeological evidence," نقلاً عن: Sudilovsky, op. cit.

(٥) للاطلاع على وجهة نظر مغايرة ومؤيدة لهذا المتحف، راجع: Sudilovsky, op. cit.

الأقصى علانية منذ سنة ١٩٦٧. لكن تصرفات هذه الجماعات في الآونة الأخيرة أصبحت أكثر شدة وعلانية، وأخذت السلطات مؤخراً تغض الطرف عنها وعن أطماعها. فمن ذلك عروضها وجولاتها الاستفزازية السنوية، والتي أخذت بعداً جديداً في تموز/يوليو ٢٠٠٠ بمحاولة وضع حجر الأساس للهيكل الثالث، التي سمحت الشرطة بها لكن في باب المغاربة بدلاً من المسجد الأقصى بحسب رغبة المتطرفين. وفي ٤ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١، وافقت الشرطة أولاً، ثم لاحقاً منعت جماعة أمناء جبل الهيكل من الاحتفال ثانية بوضع حجر الأساس، نظراً إلى إصرار الجماعة على وضع حجر الأساس هذه المرة في المسجد الأقصى بدلاً من باب المغاربة.

إن هذه التصرفات وما كان يجري في السر سابقاً، وحالياً في العلن، من إعداد المخططات لإعادة بناء الهيكل، وتسريب هذه المخططات لاكتشاف ردة الفعل، ومن ترميم للأدوات الخاصة بالطقوس الدينية، مثل الشمعدان السباعي ولباس الكهان، ومن إعداد المسرحيات للأطفال وغيرها من الأمور، لا يمكن للفلسطيني الذي يكابد الاحتلال أن يراها بمعزل عن هذا المتحف وأهدافه. فيبدو الأمر كأن الأدوار موزعة بصورة جيدة، وجهود كل جهة تكمل الأخرى؛ وبهذا يمكن تحقيق الخطوة الأولى التي عبر عنها حاخام أمناء جبل الهيكل: "نريد وضع حجر الأساس... في عقول الناس أولاً"، وبعدها تكون الخطوة الثانية أيسر وأسهل. وهذه بدايات قواعد الإقناع لمشروع يجابهه معارضة شديدة من العرب والمسلمين.

إن هذا المتحف ما هو إلا وسيلة من وسائل دس السم في العسل، يهدف في النهاية، بعد أن يتسلح بالحفريات والعلم، إلى خدمة غرض سياسي يسوغ ويشجع الاحتلال الإسرائيلي لمدينة القدس والمنطقة الدينية مقدسة وحساسة جداً. وعلينا أن نتذكر دائماً أن هذه الحفريات جرت في أراضٍ محتلة بما يناهز جميع المواثيق والقوانين الدولية، وأن هذا الموقع إن كان لا بد من تطويره فالأجدى أن يكون موجهاً لخدمة الفترات التاريخية كلها، لا التركيز فقط على فترات تاريخية منتقاة، وتجاهل الفترات الأخرى.

ولا شك في أن هذا المركز ما هو إلا حلقة من الحلقات المحكمة المعدة لغسل العقول بطريقة علمية وعملية بعيداً عن الصراخ ومخاطبة الذات، ويمهد لحشد الإمكانيات والدعم لإعادة بناء الهيكل على حساب ما هو قائم من مبان عربية وإسلامية في منطقة المسجد الأقصى. والواقع أن من الصعوبة بمكان أن يزور عامة الجمهور، وخصوصاً السياح الغربيين، هذا المتحف من دون ترك انطباع مقنع بما يشاهدون، وبما يثيره في النفس من ذكريات وشجون لكثير من المرتبطين بالعهد القديم. إن التصدي لبعض المقولات الواردة في وسائل العرض أمر معقد جداً، ويحتاج إلى تضافر جهود كثيرة صادقة وأمينة وصبورة وعلمية للوصول إلى مستوى التقنية والمعرفة نفسه الذي يستخدم في هذا المتحف.

ختاماً، هل من المجدي أن نتساءل، بل أن نصرخ أين أموال ورؤية من يحرصون على عروبة القدس وإسلاميتها؟ وأين المشاريع الثقافية الهادفة التي لا تخاطب الذات العربية والإسلامية فقط؟ ولماذا هذا الإحجام عن دعم المشاريع الثقافية، والتركيز على الرغبة في دعم مشاريع اجتماعية واقتصادية فقط؟ ■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>